خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

١٣

وكان الشابّان يتنقلان بين الجموع فيُراقبان حركات الافراح ويسمعان الاغاني المطربة ولمّا دنا الموكب القادم من بيت حنّا الطويل بادرا الى أكمة هناك يشرفان منها على الصفوف فلا يفوتهما من المشهد شيء.

واوّل ما لاح لاعينهما عشرون ابنة بين السادسة والعاشرة من العمر متّشحات بالحلل البيضاء وعلى رؤوسهنّ اكاليل الورد وفي ايديهنّ طاقات الزهور وعلى ثغورهنّ ابتسامات العبا

فاخذ المشهدُ من اصغر الشابّين كلّ مأخذ وهاج خاطرهُ فهتف قائلًا: لله ما ابدع ما نراهُ فانّ عيني لم تقع على مثل هذا في المدن العظيمة. سقى الله جبال لبنان فكأنّها هي مأوى الجمال والصفاء ورونق الحياة وبهارة الشباب والافراح. لعمري ان هذا المنظر اخذ بمجامع لبّي فيا ليتني استصحبتُ آلة التصوير الشمسي لكنت اخذت عن هذا الموكب رسمًا تقرّ بهِ العيون. على انّهُ لا يفوتني ولا بدّ ان انظم فيهِ شعرًا يهيج القلوب.

ثم ظهرت صفوف صبايا في مقتبل الشباب يرفلنَ في الحلل الملوّنة وتتدفّق الحياة من وجوههنّ النضيرة ماء ونورًا ويملو جبينهنّ الوضّاح من الحياء اكليل زاهر. وبعدهنّ طلعت نساء الضيعة في ثيابٍ تليق بمقامهنّ وفي مقدمتهنّ امرأة الدكاني تختال زهوًا وفي ايديهنّ المزاهر ينثرنَ منها الروائح الزكيّة

ووراء الصفوف حنّا الطويل رانيسة الضريرة تستند الى ذراع خطيبها كانها تاءت بها الافراح بعد ما قاست من اشكال الهوان وانواع الشقاء مدّة خمس وعشرين عامًا. وكانت تفوح من ملابسها وهيأتها ارواح الحشمة. وعلى صدرها الصليب الفضيّ يلمع دليلًا للافراح كما كان في الضرّاء عربون الرجاء.

وكان يتبع الخطيبين سركيس الحائك وامرأته واولادهما والجميع في الملابس الفاخرة

وقد بلغ الفرحُ منهم مبلغاً. واصغر الاولاد بطرس يمشي مرحاً وينظر نظر السرور الى كلّ من حواليه

وما اعظم ما كانت دهشة الشابين اذ وقعت عينها بعد ذلك على رهط من الشيوخ هم من بقايا الزمان الماضي بيض الشعور او صُلع الرؤس قد احنت ظهورهم الايام فاستعانوا على السير بالعصا او دبُّوا حتى خُيّل للراني انهم قطيع يدفعهم الموت الى هاوية القبر . وكان يتقدّمهم ابو نصيف ذلك الشيخ الاصمّ الاعمى الذي عرفناهُ في اوّل القصة يقودهُ جَدّ معلم المدرسة وكل منهما قد انحنى حتى لثم التراب

وهؤلاء الشيوخ وحدهم قد عرفهم حنّا الطويل قبل سفرته وعرفوهُ وشهدوا اعماله واقرّوا بفضل شجاعته ايام كان في ضيعته يناقس اقرانه في اقتحام الاخطار

فدخلت تلك الجموع الكنيسة وقد ضاقت عنهم فبقي الشابّان في الخارج مع من تبقّى. وما لبثا ان سمعا التراتيل على وقع الصنوج والاجراس وزفّ اليهما النسيم نفحات البخور فعلما ان القدّاس الاحتفالي قد بدأ. وبعد تلاوة الانجيل المقدّس القى الكاهن عظة ملائمة لمقتضى الحال. وكيف لا يغتنم مثل هذه الفرصة السعيدة وهو الذي عرف حنّا الطويل في حداثته وهو الذي ارشدهُ واعدّه للمناولة الاولى وهو الذي زوّده بركته الابوية ساعة رحيله عن الضيعة منذ خمس وعشرين عاماً . فضلاً عن ان شيخوخة هذا الكاهن الجليلة وفضائلهُ كانت تجعل لكلامه وقعاً عظيماً في النفوس: ولم تكُ عبارتهُ منمقة لكنها صادرة عن قلب مُفعم بشعائر التقى والوداد فاثّرت في قلوب السامعين اي تأثير حتى ذرفت اعينهم الدموع ولاسيّما تلك الابنة الضريرة فقد انهملت منها العبرات مدرارة عند سماعها ذكر خطيبها واسفاره وعودته سالماً بعد مرّ العراق وتفانيه في خدمة الله والقريب

وفي الختام استطر الواعظ بركات السماء على الرجل الفاضل ذي الايادي البيضاء الذي عمّ صنيعهُ كل اهل ضيعته. ومن يصف مشهد الكنيسة في تلك الساعة المهيبة فكنت ترى الجميع جاثين على الارض يضجّون بالدعاء الحميم قارعين الصدور ومجاهرين بالصلاة لله ان يطيل بقاء هذا الرجل المحسن ويحفظهُ مع عروسه في رغد ونعيم ليهنأ بهما اهل الضيعة اجمعون. وقد اشترك مع الحضور كلّ من قضي عليهم بالقيام خارج الكنيسة

فصاح اكبر الشابّين وقد اخذتهُ هيبة المشهد: ما ابدع هذا المنظر لعمر الحق ان هذا الشيخ الجليل بلغ في كلامه مبلغاً من البلاغة عظيماً وهو لا يدري. فقد صدق الاقدمون

في قولهم "من اراد فصاحة فحسبه ان يكون له قلبٌ شعور"

فلم ينتبه رفيقه الى قوله السديد بل صاح: لا بدّ لي من الوقوف على جلية هذه القصة. رضيتَ بذلك ام عذلتني. فقد عقدت النيّة على التعرّف الى حنّا المذكور. فانّ النفس تحدثني بنشر هذه الرواية الرائقة

قال الكبير: ما كنت لاعذلك في ذلك... ولكن على رسلك. ها قد فرغ القوم من الصلاة وتراهم خارجين. انظر الحفّار فارس عبّود والحانك سركيس

١٤

وكانت الجموع قد اصطفّت وعادت الى بيت حنّا من حيث اتت. فدنا الشابّان من الحفّار فارس وسألاهُ ان يقدّم بطاقتهما الى صاحب المنزل فلبّى هذا طلبهما عن طيبة خاطر فأدخلا الى القاعة الخاصّة بالمدعوّين واقبل عليهما ربّ البيت يصافحهما يرداد. فقال لهما: يظهر يا سيدي من البطاقة التي تكرّمتما بها انكما من رجال الادب وارباب الصحافة ولا ريب انكما ترغبان في مقابلتي حصّة على انفراد

فقال كبيرهما: نحن يا سيدي قد اغتنمنا اوقات العطلة لنضرب في نواحي لبنان وقد ساقتنا التقادير الى هذه القرية واسعدنا الحظ ان نشهد يوم نعيمك فجئنا نشترك مع دويك في تقديم اخلص التهاني لك. ومع ذلك فاننا نمتنّ لك ان تكرمت علينا بزيادة الايضاح على ما عرفناهُ

فتبسّم حنّا وقال: ادركتُ المقصود. فانكما لا تغفلان حتى في زمن العطلة عن اجتناء الاخبار. ونعمّا تفعلان. وان كان لا بدّ من نشر مقالة في ما شهدتما اليوم فاني ارجو من فضلكما امرًا واحدًا

— مُر فأمرُك مطاع وكلّ حاجةٍ مقضيّة

قال حنّا: انّ رجائي ان توقظا القُرّاء من سنة الغرور وتستلفتا الابصار وتنبّها الخواطر الى ما وراء المطامع من الخيبة والفشل ووراء الاسفار في طلب المادن من الاخطار. اجل ان الله وقّفني فتمكنت من احراز نصيب من المال وافر. فالناس يغترّون بظاهر ما يرون ويتعامون عمّا تكبدت في سبيل ما جمعتهُ. والله اعلم بما قاسيت من المتاعب والاكدار والاهوال حتى زهقت الروح قبل الحصول على الثروة اليسير

هذا وقد خطر على بال حنّا شقاؤه الماضي فصاح: آه ما انس مثل هذه الحياة. فانّ

الرجل يقضي عليه ان يتجرّد نوعاً ما من حرّيته فيأبر ذاته للغير ويطأطئ رأسه ويخفي ظهره تحت الاثقال ويقف بالابواب متوسّلاً ويسوم نفسه ذلاً فوق ذلّ صابراً على قرس البرد ولفح الحرّ معرّضاً روحه لانواع المخاوف والاخطار. وما كنت لاعود الى مثل تلك الحال ولو أُعطيت مال قارون فاني يشهد الحقّ لولا عون الله ينصرني ونور الامل ينعشني لمتّ كمداً او قتلت نفسي يأساً. وطالما سألت الله ان يمنّ عليّ بالرجوع الى بلادي ولو كان قوتي الخبز والزيتون فاقضي العمر سعيداً في فقري واعيش حرّاً على جبال لبنان الجميلة تحت سمائه البديعة

ثم أشعل لفافةً من التبغ واردف حديثه بقوله: لقد سرّ الآن بخاطري ذكر حادث لا يسعني الّا ان ارويه لكما فتُكرما بالاصغاء.

وكان الشابّان آذاناً تسمع واعينهما شاخصة الى حنّا واسان حالهما يرجوه ان لا يبخل عليهما بسرد كل ما لديه من الاخبار والتفاصيل فقال: لمّا كنت في اوائل ايّام دخولي الى بلاد الترانسفال لم يكن لي ادنى خبرة باخلاق اهلها. ففي ذات مساء عدت الى منزلي بعد الفراغ من شغلي وكنت يومئذٍ ناظراً على احد المناجم. وكنتُ أُمرتُ بالذهاب في الغد الى مدينة الرأس لقضاء مهمّة كلفني بها مدير المنجم. ولمّا خلوت في منزلي استولت عليّ عوامل السرور مما احرزتهُ من المال بجدّي واقتصادي. وقوي فيّ الامل ان افوز بثروة طائلة بها ابلغ المنى. فمرّ ببالي ذكر وطني واهلي وخلّاني وطابت نفسي بذكري انيسة

فقصتُ في بحر الاوهام والاماني وفكرت في رجوعي الى لبنان العزيز وبيتِ ابيه فيه وهدايا أتحف بها انيسة وعيدِ اقيمهُ لنا يوم اكليلنا. وبقيت على تلك الحال ابني من الآمال قصوراً شاهقة وقد سها عن بالي ان الليل قد ارخى جلابيبهُ وليس من نور يضيء في ظلمانه سوى نار سيكارتي

فاذا بالباب يطرق. فصحت بالطارق أن ادخُلْ

فولج زنجيّ ووقف مترددّاً يجيل نظره في اكناف الغرفة كانهُ يخشى رقيباً. ثم همس اليّ قائلاً: كلمة يا سيدي. لان الوقت ضاق بي. ولكن كلمة تتعلق عليها ثروتك وحياتي. انني احد الفعلة المشتغلين في المنجم الخامس. كنت اليوم عائداً من شغلي فعثرت في طريقي بقطعة من الالماس لا نظير لها عند الملوك. وجدتها بين انقاض منجم مهجور. فهي ملكي ولي حقّ التصرّف بها. ولكن لا سبيل لي الى ان ابيعها في هذه البلاد. لانّ الزنوج الفعلة يتهمونني بانني سرقتها. وكذلك يتعذّر عليّ ان افرّ هارباً اذ لا مال عندي وابواب

النجاة مغلقة دوني. فيشق عليَّ ان تبقى قطعة الالماس عندي من غير جدوى. وقد فضلت ان ابيعها وانتفع بثمنها. ولما كنت اسمع انك كريم النفس رؤوف بالزنوج لا تدي ما ملتهم حملني الامل ان اوافيك واعرض عليك تلك القطعة الفاخرة فتحصل بها على الغنى واسألك لقاءها الا ليرة استرلينية

فما سمعت كلامهُ الا اعتراني الذهول وبقيت جامدًا كالصنم. امَّا الزنجيّ فاخذ يتلاعب بين يديه قطعة الالماس بحجم الجوزة الصغيرة وهي صافية الماء خالصة على زعمه ليس فيها حبة رمل

ثم قال: وحقك يا سيدي لقد وقع تحت يدي اكثر من الف قطعة كبيرة ولكني لم اجد في عمري اصفى منها. فبمثلها تزدان تيجان الملوك. انت يا سيدي من البيض وليس من يتهمك بالسرقة. فان جدتَ عليَّ بالقرض اليسير فزتَ بالمال الكثير حلالاً

١٥

فاغراني امل الربح واعطيت الزنجيّ كل ما كان عليَّ من الدراهم واخذت منهُ الحجر الكريم وفي الغد سرت في رفقة قاصدين مدينة الرأس ودليلنا رجل من الزنوج

وفي ثاني الايام خرج علينا جماعة من الزولوس فصاح الدليل: لا سبيل للمقاومة يا سيدي فان عنا عنا الاعداء. وقنعوا بالمال غنيمة تسلّمهم كل ما معنا. فانَّ ذلك لزهيد

فصحت: كيف زهيد؟ لا لستُ اسلّم. وفي الحال اطلقت عليهم المسدّس فجرحت منهم واحدًا وانقضَّ علينا الباقون كالكواسر فقتلوا الدليل وكل رفقاءي وقدَّر الله ان بقيتُ حيًّا ولكن مثخنًا بالجراح. فاخذ زعيم الزولوس سلاحي واقتسم رجاله ثيابي وامتعتي ومالي. وقد ترعت امرأةٌ منهم قطعة الالماس وعلّقتها بعنق ولدها ظنًّا منها انها حرز حريز

وما مضى عليَّ في الاسر ايام حتى شفيت من جراحي وعادت اليَّ القوى والنشاط. وقد اختبرتُ بنفسي حينئذٍ ان الصنيع لا يضيع. فانهُ كان بين الزولوس رجل قد اشتغل من ذي قبل مع فعلة المناجم عندنا وكنت احسنت الصنيع اليهِ مرارًا. فهو الذي توسل الى زعيم القوم ليعفو عن حياتي وهو ايضًا الحّ اليهِ بعد شفاءي ان يُطلق سراحي ويردّ عليَّ ثيابي وبعض مالي

فطلبت ايضًا قطعة الالماس ولكن المرأة ابت ان تردَّها عليَّ اعتقادًا منها انها تدفع عن ولدها كل اذًى. فاخفيت ما بي واظهرت الجلد. ولما جنَّ الليل خلوت بالولد فسددت

فاه وترعت الجوهرة منهُ وفررت هاربًا على جناح الريح

وما زلت اصل السيرَ بالسُّرى وعوامل الخوف تتنازعني وانا ابتعد عن الطرق المطروقة ولا اجسر على المعاطاة مع الناس مخافة ان تُسلب مني الجوهرة الثمينة التي كانت في جيبي ويدي عليها دائمًا لا تتخلى عنها. وقد وصلت بعون الله الى مدينة الرأس بعد معاناة المشاقّ والمخاوف. واوّل ما باشرتُهُ اني بعثت برسالة برقية الى جبسل لبنان بواسطة صديق لنا في بيروت ومحتوى الرسالة « ابشري يا انيسة فاني عائد اليكِ بالاموال الطائلة »

ثم سعيت في الوصول الى عميد الجوهريين اسألهُ عمّا تساوي الجوهرة التي بنيتُ عليها الآمال. وكنت ادخل المخازن لاختار منها تحفًا أُهديها لانيسة واصحابي في لبنان ولم اكن ارضى بغير الاصناف الفاخرة. وطالما تبسَّمتُ استخفافًا عند ما كنت اسمع التجار يقولون ان الاصناف التي اشير اليها يزيد ثمنها الاضعاف عمّن سواها

ولم يكن الّا ايام قلائل حتى شاع اني من اغنى خلق الله وفي الحال تقاطر اليَّ من كل صوب عدد وافر من ابناء وطني وخلّاني ولم اكُ ادري بوجودهم في تلك الاصقاع قبل ان طارت شهرة غناي. وما اكثر من كان يدعوني حينئذٍ او يعرض عليَّ خدماتهِ

وكثر تحدُّث الناس عن ثروتي قائلين: ما اسعد هذا السوري فانهُ عاد من مناجم الترانسفال بالقناطير المقنطرة

ولما اتيتُ عميدَ الجوهريين وعرضت عليهِ قطعة الالماس تأملها وبعد الفحص قال: ما اتقن الصناعة فيها. فلو عرضتها على بائع الحليّ الزجاجية اشتراها بعشرة شلينات امّا انا فلا اشتري الالماس الكذّاب

ولا حاجة الى وصف ما المَّ بي عند ما ثبت لي ان الزنجيّ خدعني وباعني عوض الالماس زجاجًا. والله ادرى بحالي ساعة هبطت من شاهق القصور. . .

وبعد ان قمت بالمهمّة التي كلفوني بها عدت عاجلًا الى مقرّي الاول في الترانسفال وعاودت اشتغال الناظر في المناجم. وكم وكم وجب عليَّ من الكد والسهر وكم وكم تجشّمت من الاخطار وركبت متون الاهوال حتى احرزت هذا المال الذي لا اجد لهُ قيمة غير اني استخدمهُ لخير وطني وراحة قرينتي

وكان الشابان لا تزال تحدثهما النفس في طلب الاخبار والاستفسار عن التفاصيل

الكثيرة ولكنها اطاعا داعي الادب . فامسكا عن السؤال وشكرا لصاحب البيت ما لاقياهُ لديهِ من الحفاوة والاكرام ثم استأذنا في الانصراف فشيعهما بكل لطف راجياً ان لا يبخلا عليهِ بالزيارة لدى عودتهما من السفر

وما خرجا وخلا لهما الجو الّا بادر اصغرهما وهو من الشعراء المجيدين فالتقط عن الارض عودين صغيرين فادبر عن رفيقهِ ثم اقبل عليهِ وقد برز من كل من يديهِ طرف عود . وقال : هيّا احزر

فقال رفيقه : اراك عجولاً في الامر

— لا بدّ من التعجيل . هيّا احزر . فتعرف من منّا يكون صاحب الحق بايراد هذه الرواية

فسحب رفيقهُ احد العودين . فرمى الشاعر العود الثاني وقال متنهداً : انا الخاسر وانت الرابح

وهذا السبب ايها القارئ اللبيب في انك قرأت رواية انيسة الضريرة نثرًا لا شعرًا . ويا حبذا لو مزج الشاعر لكنت تقرأها في قصيدة عامرة الابيات رقيقة المعاني فتقول : انّ من الشعر لدرًا (تمّت)

شتى

اكتشاف كتب خطيّة في مصر

ورد في جريدة « وسيط الباحثين » ان العالمين غرنفل وهُنت الانكليزيّين قد اكتشفا في قرية البهنساء مستودعاً فيهِ مجلّات وكتب خطّية قديمة باليونانية قد أُودع منها قسمٌ في متحف الجيزة بمصر وأُرسل القسم الآخر الى لندن . وقد اخذ العلماء يتأنّبون زرافاتٍ الى مكتبة البريتش موزيوم لمطالعة هذه الكتابات الثمينة . وممّا وجد بينها الى الآن من المآثر الجليلة الفصل الاوّل من الجيل القديس متّى مكتوب في القرن الثالث المسيحي وفصلان من مجموع اقوال الرب (Λόγια) المنسوب للقديس پاپياس احد الاباء الرسوليين قد كتبا في القرن الثالث عشر . ومن ذلك ايضاً اعمال كثير من خطباء اليونان وشعرائهم كان قسمٌ منها مجهولاً . ولا بُدّ من زمن طويل لقراءة هذه الكتابات لكثرتها . قيل انّ ما ورد منها عاصمة الانكليز لا يقلّ عن ٢٨٠ صندوقاً